

الأدب العربي قديما وحديثا2

أنواع النثر الخطابي الإبلاغي، بنياته وخصائصه

الخطابة:

الخطابة فن قولي عربي أصيل، قديم قدم الفصاحة والبيان عندهم، يتصدر فنون النثر القديم، ويشكل جزءا كبيرا من حياة عرب الجاهلية، فيها تشحذ الهمم وتلهب المشاعر وتستثار في الحروب والخصومات، وبواسطتها تتفاخر القبائل بأحسابها وأنسابها وأيامها وبطولاتها، وبها تستعر نار الإحن والمنازعات وتؤجج العصبية القبلية، بل وامتد هذا إلى أبناء القبيلة الواحدة كما هو الحال بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل⁽¹⁾، وبها أيضا تهدأ النفوس ويصلح بين القبائل تعددت مناسبات الخطابة وأسبابها وتنوعت أغراضها وموضوعاتها، فلازمتهم في المفاخرات والمنافرات ومختلف مظاهر الحياة الاجتماعية كالمصاهرة والميلاد والنصح والإرشاد... وفي حياتهم السياسية كالتحميس على القتال وتحسينه وتحييه أو ذمه والتحذير من عواقبه، أو دعوة الأطراف المتناحرة إلى الصلح... وفي المحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء... امتاز عرب الجاهلية بالارتجال في خطبهم، فدون مكابدة تأتيهم المعاني وتنتال عليهم الألفاظ في سلاسة ويسر، يقول الجاحظ: "وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع وخطابؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن ضغط علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا معلق بقلوبهم والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب"⁽²⁾

منزلة الخطيب: إذا كان للشاعر مكانته التي جعلت القبائل تحتفل وتغتبط بظهوره وتفخر بنبوغته، فإن الخطيب ما لبث أن لحق به ونازعه هذه المنزلة العلية وربما تفوق عليه، يقول أبو عمر بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم ويهول عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهاجم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوق، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"⁽³⁾ ويعلل تفوق الخطيب على الشاعر بكون الخطابة من لوازم سادتهم الذين يتكلمون باسمهم في المواسم والمحافل بحيث تقتزن بها الحكمة والشرف والرياسة والشجاعة، نلاحظ ذلك في مراثيهم ومدائحهم لسادتهم، يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كعدة: أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ أمسو من الخطب في نار وبلبال أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وأفضال ويقول الأعشى في مدح قوم:

فيهم الخصب والسماحة والنجدة جمعا والخطاب الصلاق

ومن أسباب تفوق الخطيب على الشاعر إضافة إلى ما أورده الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء، اتساع وظيفة الخطيب فقد كان ينافر ويفاخر عن قومه ويحض على القتال وينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك والنصح والإرشاد وخطابة الإملاك والزواج، والدعوة إلى الصلح، بينما يدعو الشاعر في الغالب إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب. وهذه دلائل على أن الخطيب كان قمة في قومه وسيدا في رهطه ومصدر فخر لهم ولنفسه وقبيلته، وكثيرا ما افتخر الخطباء أنفسهم بموهبتهم واقتدارهم في فن القول، وقد جمع بعضهم بين الخطابة والشعر أمثال قيس بن عاصم المنقري والأقرع بن حابس وابن وابصة.

أشهر خطباء الجاهلية: لئن كانت الخطابة فضيلة شائعة بين القبائل العربية، فإن قبائل بعينها اشتهرت بها وعلا شأنها وفضلت غيرها، وقد عدت إياد وقيم من أخطب القبائل العربية، من أشهر خطباء إياد قس بن ساعدة الإيادي الذي يضرب المثل بفصاحته وحكمته، ومن أشهر خطباء تميم ضمرة بن ضمرة وعمرو بن الأهتم المنقري وأكثم بن صيفي وعطار بن حاجب بن زرارة، وقد استمرت زعامة تميم في الخطابة إلى ما بعد الجاهلية، فوصف البعيث المجاشعي بأنه أخطب الناس، كما عدت قريش من أفصح القبائل العربية قريش ومن أشهر خطبائها هاشم وعبد المطلب بن هاشم وأمينة وابنه حرب وعتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو الأعمى ونفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية، وقد هيا لهذا الكثرة وجود دار الندوة التي كانت أشبه بمجلس شيوخ مصغر يجتمعون فيه ويخطبون ويتناظرون. ومن خطباء عدوان وربيعة نذكر عامر بن الظراب، ومن أسد ابن حذار الذي احتكم إليه الزبير بن بدر وعبد بن الطيب والمخيل السعدي أيهم أشعر، ومن ضبة حنظلة بن ضرار، ومن تغلب عمرو بن كلثوم، ومن شيبان هانيء بن قبيصة، وفي طيء لبيد بن ربيعة العامري الذي فاخر بمهذبة المزينة في شعره، وفي غطفان قيس بن خارجة، وفي يثرب قيس بن شماس وابنه ثابت، ومن خطباء الأنصار سعد بن الربيع⁽⁴⁾.

ومن اشتهر باللسن والفصاحة عمار الطائي وهو خطيب مذبح كلها، وهانئ بن قبيصة خطيب شبان يوم ذي قار، وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاة،
وهرم بن قطبة الفزاري صاحب المنافرة المشهورة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، رآه عمر بن الخطاب يوما في المسجد فقال له "أرأيت لو تنافرا إليك أيهما
كنت تنفر، فقال: يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جدعة فقال عمر: لهذا العقل تحاكت إليك العرب"

ضوابط الخطابة وشروطها: كان للخطباء في الجاهلية وما بعدها سنن خاصة في أداء خطبهم، منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع
الكبار، ومن عاداتهم لوث العمائم على رؤوسهم والإشارة أثناء الخطبة بالعصي والمخاصر والقنا والقضبان والقسي. كما كانوا يمتدحون الصوت الجهوري الشديد
ويعيون ضيق الصوت ودقته، وأن يعترض الخطيب البهر والارتعاش والردة أو يعتره شيء من الحصر والعبي، يقول أبو العيال الهذلي: ولا حصر بخطبته إذا عنت
الخطب، كما كرهوا أن يمس الخطيب ذقنه وسباله وشواربه أثناء الخطبة، وفي المقابل يمتدحون في الخطيب شدة العارضة وظهور الحجّة وثبات الجنان وكثرة الريق
والعلو على الخصوم في مضايق الكلام ومازق الخصام...

موضوعات الخطابة الجاهلية: استهدفت الخطابة في العصر الجاهلي أغراضا تختص بها دون غيرها من الموضوعات استجابة لطبيعة الحياة آنذاك نحو الوعظ والنصح
والعزاء والخطبة والزواج والدعوة إلى الحرب أو الخض على السلام والصلح، هذا إضافة إلى وصايا كبار القوم لرهطهم وأبنائهم، وهم في كل ذلك يتوخون على
السليقة المعنى الشريف والصياغة السلسة واللفظ المنتقى المؤثر في السامع، ويستأنسون ببعض الظواهر اللغوية والبلاغية كالسجع والإزدواج وضرب الأمثال والحكم،
ومن أهم موضوعات الخطابة الجاهلية⁽⁵⁾:

1- خطابة الوعظ والنصح: تكون عادة من كبار القوم الفصحاء ذوي الحنكة والخبرة والتجارب، أشهرها خطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ وقد
وقف على ظهر جمل أحمر، فيها دعوة إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، منها قوله: "أيها الناس اجتمعوا، فاسمعوا، وعوا، من عاشمات، ومن مات فات، وكل ما هو
آت آت، آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمّهات، وذاهب وآت، ونجوم تمور، وبحور تغور، وسقف مرفوع ومهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات أبراج. مالي
أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا، يا معشر إياد أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، أين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم
ينكر، أقسم قس قسما بالله أن الله ديننا هو أرضى له من دينكم هذا ..."

2- خطب إصلاح ذات البين: نظرا للصراعات الدائمة والحروب الدائرة والعصبيات المتأججة فقد عرف العرب من الحكماء من حاول إخمادها، ومن الخطب
البليغة في تهدئة المشاحنات خطبة مرثد الخير بن ينكف وهو واحد من أقبال العرب، عالج فيها مشاحنة كادت تشعل حربا بين حبي سبيع بن الحارث وميثم بن
مثوب بن ذي رعين، كانا قد تنازعا الشرف، فاستدعى الفريقين ودعاهما إلى نبذ الحرب وترك نارها... يقول: "إن التخبط وامتطاء المهجاج، واستحقاب اللجاج،
سيقفكما على شفا هوة، في توردها بوار الأصيلة وانقطاع الوسيلة... فقد عرفتم أبناء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى
التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صبور أمورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأني واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت
الدماء استحكمت الشحنة، وإذا استحكمت الشحنة تقضبت عرى الإبقاء وشمل البلاء" فقام سبيع مثمنا قوله ومضيفا إليه ومفاخرا بقومه، ثم قام ميثم هو
الآخر خطيبا متحديا، وأمام تضاؤل فرص الصلح بينهما قام فقال: "لا تنشطوا عقل الشوارد وتلقحوا العون القواعد، ولا تؤرثوا نيران الأحقاد ففيها المتلفة
المستأصلة والجائحة والأليمة... وأنبيوا إلى السبيل الأرشد والمنهج الأqvسد، فإن الحرب تقبل بالغرور وتدبر بالويل والتبور" ثم أنشد شعرا فقبل الطرفان الصلح.

3- خطابة العزاء: من أمثلتها خطبة المنيب بن عوف يعزي الملك سلامة ذا فائش ويواسيه، وكان له ابن نجيب كبا به الفرس فوقع ومات، فحزن عليه أبوه حزنا
شديدا واحتجب من الناس حتى جاءت إليه وفود العرب تعزيه وتواسيه، وكان من المواسين الملبب بن عوف الذي صبر الملك بأسلوب الحكمة وضرب الأمثال،
منها قوله: "أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت وتحلى لتمر، وترزع الأحران في القلوب، بما تفجأ به من من استرداد الموهوب، وكل
مصيبة تخطأتك جلل، ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل، وإن حادثا ألم بك فاستبد بأقلك وصفح عن أكثرك، لمن أجل النعم عليك، وقد تناهت إليك أبناء من
رزى فصبر، وأصيب فاغتفر، إذ كان شوى فيما يرتقب ويجذر. فاستشعر اليأس مما فات إذا كان ارتجاعه ممتنعا، ومرامه مستعصبا، فلشيء ما ضربت الأسى وفرع
أولو الأبواب إلى حسن العزاء".

4- **خطابة المصاهرة:** من نماذجها خطبة عامر بن الظرب العدواني لما تقدم إليه صعصعة بن معاوية خاطبا ابنته عمرة، يقول: "يا صعصعة إنك جئت تشتري مني كبدتي، وأرحم ولدي عندي، منعتك أو بعثك، النكاح خير من الأيمة، والحسيب كفاء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك أفر من السر إلى العلانية، أنصح إبننا وأودع ضعيفا قويا"

ثم التفت إلى قومه وقال: "يا معشر عدوان: أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة منكم، ولكن من خط له شيء جاءه، رب زارع لنفسه حاصد سواه، ولولا قسم الحظوظ على قدر الجدود ما أدرك الأول شيئا يعيش به، ولكن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى، ثم قسمه أكلا، لكل فم بقلة، ومن الماء جرعة، إنكم لا ترون ولا تعلمون، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذي قلب واع، ولكل شيء راع ولكل رزق ساع، إما أكيس وإما أحمق..."

5- **خطابة المنافرات:** إذا تنازع طرفان في الصدارة وصفات الشرف تنافرا إلى واحد من أكثر حكماء العرب ليقضي أيهما أحق بالمآثر وكريم الصفات، ويرجح كفة أحد الطرفين، فكان الواحد منهما يقول للآخر: أنا أعز منك نفرا ويظل يذكر الدليل إثر الدليل، وكذلك يفعل غريمه، إلى أن يحكم بينهما من احتكما إليه، وهي عادة جاهلية ذميمة حرمها الإسلام ونهى عن الخوض فيها. من منافرات الجاهلية تلك التي جرت بين جرير البجلي وخالد بن أرقط الكلابي وقد احتكما إلى الأقرع بن حابس، ولعل أشهر منافرات الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص.

6- **خطابة الوصايا:** من خطب الجاهلية ما يصاغ على شكل وصية تخاطب العقل والوجدان وتكون عادة من كبار القوم ذوي الخبرة والتجارب، نذكر منها وصية أكثم بن صيفي خطيب تميم وحكيمها إلى بنيه ورهطه: "يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلاما لا أجد له مواقع إلا أسمعكم، ولا مقار إلا قلوبكم، فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته، الهوى يقظان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة... ولن يعدم المشاور مرشدا، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمع سمع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، ولو اعتبرت مواقع الخن ما وجدت إلا مقاتل الكرام، وعلى الإعتبار طريق الرشاد، ومن سلك الجدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويؤثر غيظه، ولا يتجاوز مضرتة نفسه، يا بني تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندامة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز، ونفاد الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب..." ففي هذه الوصية تلوح بوادر الحكمة والعقل والصدق في النصح وسداد الرأي وحسن التوجيه والإرشاد، ويكفي أن أكثم هو من دعا قومه إلى اعتناق الإسلام ومناصرتة، ومن نماذج هذه الخطابة وصية أبي طالب لوجوه قريش وقد حضرته المنية، يقول فيها: "يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، الواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا إلا أحرزتموه، ولا شرفا إلا أدركتموه، فلکم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم ألب، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية (الكعبة) فإن فيها مرضاة للرب، وقوما للمعاش، وثباتا للوطأة، صلوا أرحامكم فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكت القرون قبلكم. أجيئوا الداعي واعطوا السائل، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام.

وإني أوصيكم بمحمد خيرا، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوتهم، وصدقوا كلمته وعظمو أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا، ودورها خرابا، وضعفاؤها أربابا، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم لديه، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له بلادها، وأعطته قيادها. يا معشر قريش كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ بمديه أحد إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، وفي أجلي تأخير لكففت عنه الهزائر، ولدافعت عنه الدواهي"⁽⁶⁾

7- **سجع الكهان:** اختص به أناس أضفوا على أنفسهم هالة زائفة من التدين، والتزمو سمتا معينا من البهرج المستقبح والسجع الممجوج، وادعوا التنبؤ ومعرفة الغيب وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن، عرفوا بالكهان، ويسمى تابع الواحد منهم رئيسا، كانت القبائل تفزع إليهم في الملمات لاستشارتهم، كإعلان الحرب أو القعود عن نصرة أحلاف أو الكشف عن جرم أو تقديم نذر، كما يلجأون إليهم للحكم بينهم أو المنافرة، ويمتثلون لحكمهم الذي لا ينقض ولا يرد، وهناك من يلجأ إليهم لتأويل الرؤيا والأحلام، وبدورهم يتنبأون لأقوامهم بالملمات. مما يؤكد سمو قدرهم وعلو مكانتهم وسلطنتهم التي تتجاوز حدود القبيلة، فقد تتخطى شهرة الكاهن أن تقصده العرب من كل حذب وصوب مثل كثير من كهان اليمن، حتى قيل إن جمهور الكهان كانوا يمنيين، أشهرهم سطيح الذئبي وشق بن

مصعب الأثمري فإليهما فرع نصر بن ربيعة ملك اليمن لتفسير رؤياه، وقد بالغ القصاص في سرد أخبار عجيبة عنهم (فزعموا ألا عظم في سوطي سوى جمجمته، وأن شق نصف إنسان...)، ومن كهانهم المشهورين المأمور الحارسي من فرسان مذبح بأمره تتقدم أو تتأخر، وخنافر الحميري وقد دخل الإسلام، وعوف بن ربيعة الأسدي الذي أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندي وقتله، وسلمة الخزاعي الذي تنافر إليه هاشم بن عبد مناف وأميمة بن عبد شمس فنفر هاشما، وسواد بن قارب الدوسر، وعزى سلمة وهو أكهنهم جميعا، كما وجدت كاهنات مثل الشعثاء وزبراء وكاهنة ذي الخلطة والسعدية والزرقاء وبنات زهير والغيطلة القرشية. تضمنت كتب التاريخ والأدب بعض أقوالهم التي تلتزم السجع والغموض، وفي كلامهم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "أسجع كسجع الكهان"، وقد نفى القرآن الكريم عن الرسول صلى الله عليه وسلم صفة الكاهن (ما أنت بنعمة ربك بكاهن/ ولا يقول كاهن قليلا ما تذكرون)، كما نلاحظ اعتمادهم في خطبهم على الأيمان والأقسام بالأرض والسماء والشمس والكواكب، والإغراب في ألفاظهم للإيهام والتأثير في نفوس السامعين، فكانوا يبالغون في كل ذلك حتى تنغلق معانيهم وتغمض الدلالات وتكثر الاحتمالات عند المتلقين، فيصبح القول أقرب إلى الرمز الحمال لأوجه كثيرة.

خصائص الخطابة الجاهلية: - من أهم خصائصها الصنعة فقد تميز عرب الجاهلية بمجهد البيان والطلاقة والتجوير والبلاغة، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطاباتهم من حيث الصقل وتجديد الألفاظ وتخزين مخارج الكلم وجهارة الصوت بل والرغبة في سعة الشدق وهذل الشفاه، حتى بلغوا التكلف، لم يصلنا منها إلا النزر اليسير. - وقد بنيت أغلب الخطب على السجع والمحسنات البديعية والزخارف اللفظية، يقول الجاحظ: "ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار"، فقد كانوا يعمدون إلى العبارات المسجوعة ليكون لها وقع موسيقي في الأسماع فترتاح إليها النفوس، وكانوا يكثر من باقي المحسنات البديعية الأخرى كالمقابلة والطباق والازدواج والترادف والجناس، كل ذلك على السجعية دون تكلف أو عناء، يقول الجاحظ: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجمالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... فتأتيه المعاني أرسالا، وتثال عليه الألفاظ انثيالاً".

- وكانوا يدجون في هذا السجع صورا من التشبيه والاستعارات وكذلك التجويد والتجوير. - وكانوا يهينون الكلام في عظام الأمور وصعاب المهمات، يعدونه في صدورهم. - وكانوا يدجون الخطب ويزينونها، وكثيرا ما وصفوا خطبهم بأنها كالوشى المنمق. يقول الجاحظ: "ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار".

- وكانوا يدجون في هذا السجع صورا من التشبيه والاستعارات والأخيلة والتصوير وكذلك التجويد والتجوير، وكثيرة هي الصور المستوحاة من مظاهر الحياة الحسية، كتشبيه العرب بالجمال، والبحور، والنجوم الزواهر، والحصى عددا، يقول علقمة بن علاثة لكسرى: "أيها الملك من يبيل العرب يعرف فضلهم، فاصطنع العرب فإنها الجبال الرواسي عزاء، والبحور الزواخر طميا، والنجوم الزواهر شرفا، والحصى عددا"، ومثلها حكم هرم بن قطبة الفزاري بين علقمة وعامر، وخطبة الكاهنة شعثة في وصف الإخوة السبعة ففيها تشبيهات وكنيات لطيفة واستعارات رائعة⁽⁷⁾.

- وكانوا يهينون الكلام في عظام الأمور وصعاب المهمات، يعدونه في صدورهم. - وكانوا يدجون الخطب ويزينونها، وكثيرا ما وصفوا خطاباتهم بأنها كالوشى المنمق الشبيه بوشى الثياب، وبلغ من جمال خطبهم أن اقترحوا لها أسماء، وتوارثوا حفظها لروعة بياضها، يقول الجاحظ: "ومن خطب العرب العجوز، وهي لآل ربيعة، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها، ومنها العذراء وهي خطبة قيس بن خازمة في حرب داحس والغبراء، سميت بذلك لأنه كان أبا عذرها"، فلم يكن غريبا أن يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأهمم المنقري فيقول مقولته الشهيرة "إن من البيان لسحرا".

- ومن أهم خصائص الخطابة الجاهلية الإيجاز وقصر الجمل، والاعتدال أحيانا، لا هي بالملخلة ولا المملة، فلا تتجاوز الخطبة الفقرتين أو الثلاث فقرات قصار، كخطبة أكتهم بن صيفي التي عزى بها عمرو بن هند بوفاة أخيه، أو كخطب الوفود بين يدي كسرى، ويعود هذا إلى طبيعة الحياة البدوية التي لا تستدعي التوقف عند موضوع إلا للحظات والانتقال إلى غيره. كما اتسمت الخطابة الجاهلية بقصر الجمل لأن استيعاب المستمع لمعاني الجملة القصيرة أسرع وأسهل من معاني الجملة الطويلة، ومن صور هذا القصر وضرب الأمثال والحكم، وتمثل لهذه الخاصية بخطبة علقمة بن علاثة العامري في وفادته على كسرى: "إن للأقويل مناهج، وللآراء موالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدق، وأفضل الطلب أنجح".

- ميلهم إلى التلميح دون التصريح فقد امتاز العرب بالذكاء والبديهة وسرعة الخاطر، والقدرة على بلوغ المعنى بالتلميح والإشارة..
- اكتناز خطبهم بالحكم والأمثال، وكأنهم يتخذون منها قاعدة للتأثير، وحافزا لأن يتعظ الناس بمن سبقهم.
- تعدد الموضوعات وعدم ترابط الأفكار، ففي الخطبة الواحدة موضوعات شتى لا رابط بينها.
- عدم انضباط الخطابة في خط معين في بنائها وترتيب عناصرها من استهلال ومقدمة وتمهيد وصلب موضوع وخاتمة، فكثيرة هي التي تهجم على الموضوع دون مقدمات وتخرج دون خاتمة⁽⁸⁾.

الخطابة في صدر الإسلام: كان ظهور الإسلام إيذانا بتطور واسع في الخطابة إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف خلال ثلاثة عشر عاما ظل يعرض على قريش والقبائل العربية الدين الجديد، وعشر سنوات في المدينة المنورة، يعرض أوامر الدين ونواهيها ويعلم مبادئه ويبين آدابه ومعانيه الروحية السامية، ويضع الحلول لكثير من المشكلات الدنيوية، فكانت خطبه صلى الله عليه وسلم متممة للذكر الحكيم وتعاليم الإسلام وكانت من ثم فرضا مكتوبا في الجمع والأعياد وكان من الطبيعي أن تقضي هذه الخطابة في عهده صلى الله عليه وسلم والراشدين من بعده على ألوان من الخطابة الجاهلية المخالفة لروح الإسلام، فقد نعى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأجداد والأنساب والأحساب وإن ظلت في عهده على لسان الوفود العرب، كوفد تميم، فقد قام خطيبهم عطار بن حاجب بن زرارة مفاخرا بقومه وندب له الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن الشماس الذي رد عليه مستوحيا هدي الإسلام ولم يلبثوا أن أسلموا.

بناء الخطبة النبوية: كان الرسول صلى الله عليه وسلم من أفصح قريش وأبين العرب طبعاً، اختصه الله واصطفاه لرسالته، وكانت لخطبه وسائر كلامه منزلة رفيعة ولا تزال، من تقاليد في خطابته في صلاة الجمع والأعياد أنه كان يخاطب في الصلاتين خطبتين يجلس بينهما، تدوران في أمور الدين والدنيا وما يجب أن يسود المجتمع من قيم أخلاقية واجتماعية، وكان صلى الله عليه وسلم يخاطب في سائر الأحداث والمناسبات ولكن لم يصلنا من ذلك إلا القليل، وإن اشتهرت خطبه بالقصر فقد كان يطيل أحيانا، وفي بعض المناسبات يعظ الناس ويدعوهم إلى التدبر والتفكير في الملكوت والخالق، ولم تحتفظ الذاكرة إلا بالقليل من خطبه.⁽⁹⁾

أول خطبة في دعوة قومه بمكة إلى الدين الجديد، عمد فيها إلى أسلوب الترغيب والترهيب، بعيدا عن زخرف اللفظ وترصيعه، منها قوله: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوء، وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا"⁽¹⁰⁾

وهذا نمط جديد من القول بلاغة وفصاحة وإيمانا وبساطة وصدقا وعمقا لم يألفه العرب من قبل، وتصير نافذ بحقائق غفل الناس عنها بتوكيدات قوية (لتموتن كما تنامون/ لتبعثن كما تستيقظون)، هذا إضافة إلى المقدمة المؤثرة البليغة الفاتحة للنفوس والمهيئة للقبول. ومن نماذج خطبه أنه خطب مرة بعشر كلمات، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبرة، ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار"⁽¹¹⁾. ومن خطبه في الوعظ والتذكير بالآخرة والدفع إلى صالح الأعمال وترك الحرام والزلل والترغيب في الخير والفلاح: "أيها الناس: كأن الموت على غيرنا قد كتب وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبوتهم أجدائهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم ونسينا كل واعظة، وأما كل جائحة، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة. طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، وسعته السنة ولم تستهوه البدعة"⁽¹²⁾. كما نذكر خطبته التاريخية يوم فتح مكة، ومغزاه العميق بعودة المهاجر المضطهد إلى موطنه عزيزا منتصرا بعد ضعف، وذل رؤوس الشرك وخذلهم بعد طغيان، وقف المصطفى وقفة بغير زهو أو غيظ أو غرور، جامعا القلوب ومؤلفا بينها، وقد تطهرت الكعبة من رجس الوثنية، يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا، فيهما الدية مغلظة، منها أربعون خلفه في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وادم من تراب، يا معشر قريش ما ترون أي فاعل بكم؟ قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء"، ولم يقف به الأمر عند العفو بل عمد إلى تكريمهم في شخص زعيمهم: "من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل بيتي فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان بن حرب فهو آمن"⁽¹³⁾، وتلك كياسة القائد ولباقة الرائد وإهام المرسل ورقة الإنسان الذي قال فيه المولى عز وجل: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك".

وهو صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه وكل مخاطبيه دفعا إلى صالح الأعمال والإعداد للآخرة قبل فوات الأوان والإيمان بالبعث ويوم العرض والثواب والعقاب، ولم تكن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم في الوعظ فقط بل في التشريع وتنظيم الحياة والعلاقات لبناء خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ويعين بعضها بعضا على الخير والبر والصلاح، ولعل خير خطبة تشريعية صورت عبقرية هذا المجتمع الروحي وأرست قواعده، خطبته في حجة الوداع⁽¹⁴⁾ التي ابتدأها بحمد الله واستغفاره والتوبة إليه والاستعاذة به من شرور النفس وسيئات الأعمال والإقرار بالشهادتين وتوصية المسلمين بطاعة الله ثم قوله أما بعد، ليعرض بعد ذلك لخلاصة دستور الأمة الإسلامية المنظم لحياة الأفراد والجماعات فيما بينهم وبينهم وسائر الأمم الأخرى، فهي جامعة مانعة، شاملة لمشروع تنظيم الأمة، فيها المبادئ التشريعية السامية المتصلة بصلاح المجتمع وتنظيم حياة الناس، وفيها بيان الحلال والحرام، وتقديس الأمانة وإعظام شأنها، وتحريم الربا وكثير من العادات الجاهلية كالثأر والنسيء، تأكيد تشريع القصاص بدل الثأر عن طريق الحاكم لا الأفراد، تنظيما لموارث، إعلان نهاية الشرك في الأرض الحرام، تنظيم العلاقات بين الأفراد وتعزيز مكانة المرأة وإعلان المساواة المطلقة بين الناس فأكرمهم ألقابهم. وفيها حرص على تأكيد الفكرة وتثبيتها بتكرار عبارة ألا هل بلغت/ اللهم فاشهد. وقد كانت خطبه صلى الله عليه وسلم إما موعظة حسنة وترغيب وترهيب وبيان لمسؤولية المسلم الخلقية وأنه محاسب غدا مما يدفعه إلى إصلاح نفسه وتقويمها والارتقاء بها في مراقي الكمال، وإما تشريع وتنظيم للمجتمع وما ينبغي أن يسود فيه من عوامل الخير ودواعيه، وأسباب الترابط والتعاون والتآزر. ومن خصائص خطبه صلى الله عليه وسلم خلوها من التميمق والصنعة وابتعادها عن الإغراب والتعقيد والاستكراه، دون أن تفقد رونقها وبهاءها وجزالتها وقدرتها على أسر القلوب وإعمار الصدور وإراحة الأسماع، فإليها اجتمعت النفوس المتباينة الأهواء وبها انسقت، لقد كانت نموذجاً في الدقة ووضع الكلم في مواضعه ومثالا لحسن انتقاء الألفاظ لتقع موقعا حسنا من نفوس المتلقين، فمن أدبه الجم قوله: "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقسست (بكسر القاف) نفسي، فقد كره أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه"⁽¹⁵⁾. ومن خصائصها الانسجام والوحدة الفكرية والعاطفية واتصال معانيها ببعضها البعض ووضوحها. كما تخلو خطبه من السجع الذي كان ينفر منه بسبب استخدام كهان الجاهلية له، وكذلك تجنبه خلفاؤه من بعده، روى الطبري أن عمر بن الخطاب سأل صحار العبدى البليغ الشهير عن مكران الفارسية أثناء غزو المسلمين لها، فقال: "يا أمير المؤمنين أرض سهلها جبل، وماؤها وشل، وقرها دقل، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل". فقال عمر: أسجاع أنت أم مخبر؟ فقال صحار بل مخبر⁽¹⁶⁾.

خطابة الخلفاء الراشدين: اقتدى الخلفاء الراشدون بالمصطفى صلى الله عليه وسلم في خطاباتهم في بنائها ولغتها وكانوا يوشونها بأيات من الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة، فكلهم فصحاء مفوهون، أولهم أبو بكر الصديق الذي عالج بحكمة حال الذهول والحيرة التي أصابت المسلمين لما قبض المصطفى بمقولته الشهيرة: "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد تقدم لكم في أمره، فلا تدعوه جزعا، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط، ولا يشغلنكم الشيطان يموت نبيكم، ولا يفتنكم عن دينكم، فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظرنه فيلحق بكم"⁽¹⁷⁾. وقد مضى على نهج النبوة قولاً وفعلاً، يقول في خطبة البيعة موجزا ومركزا جامعا أساسيات الخلافة الراشدة: "أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقوامكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"⁽¹⁸⁾. وغالبا ما يركز على القيم الروحية والتربوية، من ذلك قوله: "ألا إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك... ألا إن الفقراء هم المرحومون، ألا وإنكم اليوم على خلافة النبوة ومفرق المحجة، وإنكم سترون بعدي ملكا عضوضا وملكا عنودا وأمة شعاعا ودما مفاحا، فإن كانت للباطل نزوة ولأهل الحق جولة، يعفو لها الأثر، وتحى بها الفتن وتموت لها السنن، فالزموا المساجد واستشيروا القرين واعتصموا بالطاعة، ولا تفارقوا الجماعة"⁽¹⁹⁾. وقد برع في سياسة الناس وقيادة الأمة، فكثيرا ما خطب في الجيوش الماضية نحو الغزو فأوصى قادتها بالتمسك بعري الإسلام والجهاد، في سبيله ورسم لها دستور حرب في الإسلام ينم عن حنكة ويكشف عن فطنة وذكاء، منها خطبته في توصية الجيش بأداب التعامل مثل إكرام الرهبان وذكر اسم الله على الطعام/ مقاتلة جيش العدو وجواسيسه، ونهاهم عن الخيانة والغدر والتمثيل بجنث القتلى، وعن قتل الأطفال والشيوخ والنساء وعن حرق النخل أو اقتلعه وقطع الأشجار، وعن ذبح المواشي إلا لأكل...⁽²⁰⁾ وامتازت خطبه بالدقة في اختيار الألفاظ، ورواية الأسلوب، واجتناب السجع، والجنوح إلى الحزم والحكمة في رفق.

وكذلك كان عمر مثل صاحبه في روعة البيان، واتباع سنن المصطفى وهدية ومنهجه، مع صرامة واضحة، من خطبه ما أورده الجاحظ في البيان والتبيين: "أقدعوا هذه النفوس عن شهواتها، فإنها طلعة، وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور. إن هذا الحق ثقيل مريء، وإن هذا الباطل خفيف وبيء، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا." (21)

ويقول موصيا الخليفة من بعده: "أوصيك بتقوى الله لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا: أن تعرف سابقهم، وأوصيك بالأنصار خيرا، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرا فإنهم رءء... وأوصيك بأهل الذمة خيرا: أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم. وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ومحافة مقتته أن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تحشى الله في الناس ولا تحشى الناس في الله، وأوصيك بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وتغورهم ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم... وأمرك أن تشتد في أمور الله وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم... واجعل الناس سواء عندك لا تباي على من وجب الحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأثرة والمحابة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين، فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك..." (22) والخطبة طويلة أشبه بدستور مفصل في الحكم بشريعة الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما عثمان بن عفان فكان دون صاحبيه من الفصاحة والبيان، فقد صعد المنبر مرة فأرتج عليه فقال: "إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب" (23)، ولا ينبغي هذا اقتداره وفصاحته فله خطب في الفتنة منها قوله لما نقم الناس عليه: "لقد أفرزتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علي، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، ووقمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخزومة فدنتم له على ما أحببتهم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كنفني، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأت علي. أما والله إني لأقرب ناصرا وأعز نفرا، وأكثر عددا، وأقمن - إن قلت هلم- أن تجاب دعوتي من عمر..." (24)

ولم يكن الإمام علي بن أبي طالب يقل عن الخليفين الأولين شأنًا في خطبته، وقد أثرت عنه خطب كثيرة، روى الجاحظ طرفا منها في البيان والتبيين، ومنها كثير في صراعه مع الزبيريين وعائشة ومعوية والخوارج، حيث يكثر من دعوة الجنود إلى الجهاد، فيها اقتدار على المحاوراة والجدال والإقناع وضرب الأمثال. من ذلك قوله في خطبة لما لاحت بوادر الفتنة: "الحمد لله على كل أمر وحال، في الغدو والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ابتعثه رحمة للعباد، وحياة للبلاد، حين امتلأت الأرض فتنة، واضطرب حبلها، وعبد الشيطان في أكنافها... فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي أطفأ الله به نيرانها، وأخذ به شرارها ونزع به أوتادها، وأقام به ميلها، إمام الهدى، والنبي المصطفى، فقد صدع بما أمر به، وبلغ رسالات ربه، فأصلح الله به ذات البين، وآمن به السبل، وحقن به الدماء، وألف به بين ذوي الضغائن الواغرة في الصدور، حتى أتاه اليقين، ثم قبضه الله إليه حميدا..." كما اشتهرت خطابة الوفاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت القبائل توفد إليه ممثليها للبيعة أو التحالف أو طلب الحوائج... فكانوا يخطبون بين يديه، نذكر منها خطبة ابن أبي زهير النهدي (25) وفي النساء خطبيات مبرزات نذكر منهن أم المؤمنين عائشة، والخنساء في حضنها أولادها على المضي في القتال في القادسية، وأسماء ذات النطاقين، وأم الخير بنت الحرش والزرقاء بنت عددي الهمدانية اللتين خطبتا في صفين... والملاحظ في خطب الخلفاء عدم اهتمامهم بزخرف اللفظ وتجنبهم السجع إلا ما جاء عرضا، حتى لا يتشبهوا بالكهان، وقد كانت خطبهم على قدر عال من البلاغة والفحولة والدقة والقدرة على انتقاء الألفاظ البليغة والمعاني السامية الرفيعة في خدمة الدين وصلاح الدنيا، وعموما فقد نهضت الخطابة في صدر الإسلام، إذ أتيج لها من النبوة الشريفة والرسالة السماوية ما أعلى شأنها وهدبها من شوائب الجاهلية، إضافة إلى بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وفصاحته، وسنه سننا للقول اتبعها صحابته، وفي كلها تأثر ببلاغة القرآن وإعجازه، وكفى الخطابة شرفا في ظل الإسلام أن غدت وسيلة لتبليغ هذا الدين للناس وشرح تعاليمه، وإقناع الآخرين به ورد طروحاتهم، وصارت أداة بناء في المجتمع الجديد ووضع الحلول لمشكلاته، وكفى أن رفع الإسلام من شأنها بأن صيرها فرضا لا تقوم صلاة الأعياد إلا به. وما يمكن ملاحظته كثرة الخطب مع كل حادث وكل غزو وكل خير فتح جديد، وظهور خطابة الصراع السياسي (حركة القراء في خلافة عثمان بن عفان وخروج عائشة وطلحة والزبير عن علي ثم الخوارج (26) كما ظهرت خطابة الوعظ وأشهر أعلامها عبد الله بن مسعود.

ملاحظة : وقد استمرت الخطابة في العصرين الأموي والعباسي خاصة منها السياسية والدينية، ثم في عصر المماليك وحافظت على البنية نفسها إلى يومنا هذا وإن لم يعد لها التأثير نفسه لوجود وسائل التأثير السمعية والبصرية المعاصرة.

الوصايا: هي نص قريب من الخطبة لكنها لا تتطلب جمعا من الناس، بحيث يقولها الرجل لبنيه أو عشيرته أو أهل بيته في أمر خاص عند الإحساس بدنو الأجل أو السفر، وقد تقال لجمع غفير من الناس فيما يعرف بخطابة الوصايا⁽²⁷⁾.

لم يكن للوصية حظ وافر من اهتمام القدماء رغم حضورها الواضح في المنجز النصي لصدورها عن كافة الفئات الاجتماعية من رجال السياسة والحكم إلى أهل الأدب والعلم وصولاً إلى أبسط طبقات المجتمع، ويرجع بعض الدارسين هذا الوضع إلى عاملين، "أولهما عام مرتبط بنقد النثر نفسه، وثانيهما خاص متعلق بوضع الوصية بوصفها ضرباً من ضروب المنثور الذي لم يكن مركزياً في تصورهم⁽²⁸⁾". فلم ينلها اهتمام النقاد لكونها لا تعكس النموذج المثالي الذي يمثل البلاغة العربية، حيث انحصر هذا النموذج في الأجناس المركزية الثلاثة التي جاء بيانها في نصّ "أبي هلال العسكري" ف"أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل والخطب والشعر وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب"⁽²⁹⁾، وقد استحوذت هذه الأجناس على المشهد التقديري والبلاغي العربي.

-موضوعات الوصايا:⁽³⁰⁾ موضوعات الوصية كثيرة ومتنوعة فلا يمكن حصرها لارتباطها بسياقات اجتماعية وثقافية متنوعة، وهذا التنوع متصل بطبيعة الموصي "فقد تكون صادرة عن جهة غيبية (وصايا القرآن...) وقد تصدر عن جهة بشرية حاملة لسلمات التأييد الغيبي تجعلها فوق بشرية كوصايا الرسل والأنبياء، وقد تكون الوصايا ذات سمات أدبي بياني خطابي محض، كوصايا الأدباء والسياسيين والخطباء والحكام، ثم الوصايا الشعبية العامة الصادرة عن الآباء والأمهات للأبناء وغيرهم⁽³¹⁾، فهذه المقامات المختلفة والمتباينة تؤدي بالضرورة إلى اختلاف النصوص خاصة على مستوى المضامين وطريقة الصياغة والبناء، فالوصية في الواقع الإبداعي ليست حكراً على الأدباء ولا على مجال معين من التفكير، فلا تنتج الجهة الموصية نصاً أدبياً بالضرورة.

والوصية خطابٌ مرّن، يرد في صورة نص متكامل ذي بنية مستقلة، يتخذ الصيغة النثرية غالباً، وقد ترتحل فتستدعي عنصراً مكوناً لأنماط قولية مغايرة، قريبة منها، كالخطبة والحكمة والمثل والرسالة والكتاب والموعظة والخطاب الديني أو بعيدة عنها كالخطاب التاريخي والسرد⁽³²⁾.

كل ذلك يبعدها من أن تصبح أنموذجاً للبلاغة العربية، لذلك ظلت رغم ضخامة منجزها النصي بعيدة عن الاهتمام والعناية النقدية، فلا يكاد يخلو مؤلف من المؤلفات النقدية وكتب المختارات من ذكر لبعض الوصايا أو انتقاء مقتطفات منها والاستشهاد بها أثناء النقد، غير أننا "لا نظفر برؤية متكاملة ولا بتصور نقدي دقيق لأصول هذا الفن الأدبي. فأغلب ما نستخلصه منها ورد فيها بطريقة ضمنية"⁽³³⁾.

- بلاغة الوصية: تُعرّف الوصية الأدبية على أنّها "خطاب شعريّ أو نثريّ، يتجه به المتكلم إلى مخاطب مفرد أو بصيغة الجماعة، يتضمن عناصر تدلّ على أنّه خطابٌ ناتجٌ عن إمكان حدوث تباعد بين المتكلم والمخاطب"⁽³⁴⁾، وقد أقيم هذا التعريف على جملة من المعايير تفصيلى بنا إلى تصور الأنواع التي يمكن أن تتفرع إليها الوصية على اعتبار التنوع الذي يمكن أن يحصل على مستوى أطراف الوصية (الموصي/الموصى/نص الوصية)، فالوصية على اعتبار النصّ قد تكون شعراً كما قد تكون نثراً، أما على اعتبار الموصى (المخاطب) فقد تكون وصية موجهة إلى مفرد كالابن، أو قائد الجيش، وقد تكون موجهة إلى مخاطب بصيغة الجمع كوصايا -النبى صلى الله عليه وسلم- لكل مسلم.

أما على مستوى الطرف الأول؛ المتكلم (الموصي) فقد ركّز التعريف على الحال التي خلفت إمكانية التباعد بينه وبين المخاطب، والتي قد تكون الإحساس بدنو الأجل كما قد يكون التباعد مؤقتاً أو ظرفياً كالتباعد بين الخليفة وقائد جيشه على سبيل المثال.

وإمكانية التباعد أثرت بشكل واضح على الجانب المضموني للوصية، وهذا التباعد لا يعني الموت بالضرورة بل يكون لمهام سياسية أو حرية يكلف بها الموصى من قبل الجهة الموصية، والنص في النهاية ما هو إلا جملة من النصائح والتوجيهات والمواعظ والأوامر والنواهي والتنبيهات التي رأى الموصي أنّها تفيد المخاطب وتسهّل له سبل الحياة، ولذلك فقد أعطت الوصية أهمية بالغة للجانب الدلالي الذي يعدّ واحداً من المكونات الدالة على أدبية الوصية. "فالدلالة في الوصية مكونٌ أساس، لأنّها تروم تحقيق التخليق، وإحداث التغيير في الواقع الخارجي، والدفع نحو تغيير السلوك والعزم على الفعل الإيجابي وهي بمثابة دستور متكامل يسطره الموصي، ويضمّنه كلّ القضايا التي يرى أنّها كفيلة بعصمة الموصى من الزلل، ليعيش في حياة الموصي أو بعد فواته، في وضع مأمون من الانحراف أو الفشل، ويكون مؤهلاً لخوض معركة الصراع مع الحياة وإكراهات الزمن، بصورة لا تسلّمه إلى الندم أو الحسرة"⁽³⁵⁾. كما أنّ العلاقة الجامعة بين طرفي الوصية

(الموصي/الموصى له) لها تأثير كبير على مضمون الوصية وأسلوبها، فإذا كان الجامع بين الطرفين علاقة دموية وجدانية كعلاقة الأب بالبنين فإنّ ألفاظ الوصية تميل نحو الحقل الدلالي للمحبة والخوف ومحاولة الإقناع والتأثير عن طريق العاطفة والوجدان، فيكون الخطاب في أغلبه لئناً، أما إن كانت العلاقة بينهما علاقة الحاكم بالمحكوم كالوصايا التي تصدر من الحكام ورجال الدولة إلى من هم دونهم من الولاة وقادة الجيوش وغيرهم، فإنّ خطاب الوصية سينحرف نحو دلالات مختلفة تتسم

بالصرامة والحزم والتعبير عنها سيتجه نحو حقول دلالية أخرى لا تعكس اللين الذي يطبع النوع الأول من الوصايا. وطبيعة العلاقة بين الطرفين لا تؤثر على المضامين وطرق التعبير فحسب وإنما ينسحب ذلك التأثير على سبل الإقناع والتأثير، فالرغبة في إقناع المخاطب والتأثير عليه تحول الوصايا إلى عملية حجاجية بين طرفي الوصية، و"الوحدة الحجاجية في الوصايا تتكوّن من عنصرين متلازمين تلازماً صريحاً أو ضمناً وهما **الطلب** و**الحجّة**. وقد يورد الموصي الطلب ويرفقه بالحجّة وهو أكثر الأشكال تواتراً. وقد يورد الحجّة مكتفياً بما داعياً الموصى له إلى استخلاص الطلب المضمّن اعتماداً على معطيات مقالبة ومقامية. وقد يكفي بالطلب دون التصريح بالحجّة أو الحجج..."⁽³⁶⁾. وفي سبيل بلوغ الغاية الإقناعية تختلف طرق الخطاب من موص إلى آخر فقد يستهدف الموصي عقل الموصى كما قد يستهدف عاطفته، كما قد يمزج بين الطريقتين. وتحديد نوع الطريقة مرتبط بجملة من العوامل أهمها طبيعة الموصي وعلاقته بالموصى والمقام الجامع بينهما، وأساليب الحجاج في ذلك "منها ما يُتوجّه به إلى عقل الموصى له من قبيل القياس المضمّر والتعريف والحكم والسؤال الحجاجي الباعث على التفكير، ومنها ما يُتوجّه به إلى وجدانه من قبيل استدعاء مشهد الموت والحديث عن الذات، ومنها ما يقع على حدّ فاصل واصل بين العقل والوجدان شأن الصور البلاغية ولكن الحدود بين هذه الأنواع تظلّ تقريبية لا تقريرية"⁽³⁷⁾، لأنّ مقام الوصية يختلف من نص إلى آخر ومن موص إلى آخر وتختلف معه طرق الإقناع وأساليبه. وعلى الرغم من الارتباط الكبير بين جنس الوصية والغايات الإقناعية التأثيرية إلا أنّ للوصية أبعاداً فنيّة جماليّة تجعلها محط قبول وإعجاب لدى المتلقي، تلك الأبعاد مردّها التفاعل الحاصل بين النصّ والتجربة الإنسانية التي يعبر عنها والتي تعطي للنص لمسة خاصة بصاحبه مختلفة عن سائر النصوص الأخرى، لانطلاقها من فناعته الخاصة في التفكير والتعبير معاً، والوصية قائمة على جملة من الاختيارات اللغوية والأسلوبية الخاصة بالموصي دون غيره.

ومن الخصائص الأدبية الجمالية لجنس الوصية استعانتها ببعض أجناس القول الأخرى في سبيل بلوغ الغايات الحجاجية الإقناعية من جهة، وفي سبيل دعم اختياراته الأسلوبية الجمالية من جهة أخرى، ويأتي على رأس تلك الأجناس **المثل والحكمة**، ولعل هذا الاختيار مرتبط بالطاقات الدلالية والجمالية التي يجتزمها كلّ من المثل والحكمة باعتبارهما من الأشكال البلاغية الموجزة التي يمكن اعتبارها خزاناً للذاكرة الثقافية والفكرية. كما يتيح هذا الضرب من التوظيف لصاحب الوصية سبلاً تعبيرية "بها يمرر المختلف فيه تمرير المتفق عليه بل والمسلم به لئلا تكون الآراء والقيم الواردة في نصّ الوصية عرضةً للمناقشة والجدل والرفض. لذلك يمكن اعتبار التعبير الضمني من أبلغ أساليب التعبير وأنفذها"⁽³⁸⁾، كما للمثل والحكمة تأثيراً إيجابياً على المتلقي وبذلك يضيفان على النص نوعاً من القبول والتصديق. وعموماً فإن أسلوب الوصية لا يختلف عن أسلوب الخطبة، فهو يتسم بالإحكام والدقة والبعد عن التكلف لجديتها، كما يتسم بالسهولة والجزالة واتحاد المعنى مع لفظه، مع الاستعانة ببعض الصور البيانية دون تكلف، واعتماد المعاني السهلة البعيدة عن الغرابة والإغراب، وغالبا ما تأتي الجمل قصيرة وأحياناً مسجوعة أو مزدوجة، منسجمة غير مستكرهة⁽³⁹⁾.

- الأمثال: المثل عبارة قصيرة محكمة البناء، جيدة السبك، متينة الرصف، تشير إلى حادثة أو قصة سابقة مقتطعة من أحداث، بعضها واقعي صرف مثل قصة طويس، وبعضها واقعي خالطه العجائبي مثل قصة الزباء التي تحتوي أكثر من ثلاثين مثلاً، وبعضها تاريخي مثل مقولة الإمام علي: أكلت يوم أكل الثور الأبيض، وتقال في مقامات مشابهة لها، فمدار هذه التسمية التشابه والتناظر، وقضية المشابهة ركن ركيزي في نشأة المثل⁽⁴⁰⁾. لقيت الأمثال عناية خاصة من الرواة والمؤرخين وعلماء الأدب واللغة، جمعا وشرحا وضبطا، من جماعها عبيد بن شربة/ صحار العبدوي/ يونس النحوي/ أبو عبيدة/ ثعلب/ أبو عبيد القاسم محمد بن سلام/ المفضل الضبي/ أبو هلال العسكري/ محمد بن زياد الأعرابي/ محمد بن حبيب البغدادي/ حمزة الأصفهاني... وقد شرحها كثيرون وأضافوا إليها من أمثال صدر الإسلام، جمع صاحب مجمع الأمثال مادته من أكثر من خمسين كتاباً في الأمثال، كما نجد الكثير منها في كتب اللغة والأدب والأمالي والمختارات⁽⁴¹⁾. فالمثل من أبرز أجناس النثر الوجيهة في التراث النقديّ العربيّ، وقد كان لهذا الجنس حضورٌ واضحٌ في أمهات الكتب التراثية⁽⁴²⁾، على نحو ما نجد في العقد الفريد أين خص ابن عبد ربه (ت 328 هـ) للأمثال فصلاً كاملاً من كتابه. كما أفردت لهذا الجنس كتب كاملة اهتمت بجمع الأمثال وتصنيفها منذ بدايات العصر الأموي، "إلا أننا لا نجد بين النقاد (...) من نصّ صراحة على أنّ الأمثال جنسٌ من أجناس الخطاب التثريّ مثل الخطابة والرسائل"⁽⁴³⁾، رغم ورود نصوص نقدية صريحة تقرّ بلاغة المثل بل واعتباره شكلاً من أشكال البلاغة ذاتها وفي هذا السياق نذكر نصاً لأبي سليمان المنطقي فيما أورده عنه أبو حيان التوحيدوي يعدد ضروب البلاغة فيقول: "البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشعر، ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل"⁽⁴⁴⁾، وهو اعتراف بالجمالية الواردة في المثل التي من شأنها أن تجعل منه جنساً من الأجناس الأدبية على غرار الخطابة والشعر وغيرهما، غير أنّ هذه النصوص لم تجد الخلفية النقدية التي تدعمها فظلّ المثل بعيداً عن أغلب التصنيفات التي خضع لها النثر العربي القديم.

بنية المثل وأدبيته: يذهب المبرد إلى أنّ المثل مأخوذ من المثل، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول⁽⁴⁵⁾، فالسيرورة خاصة من خصائص المثل لا يستقيم إلا بها، فلا يمكن أن يعدّ مثلاً إذا لم يسر ذكره بين الناس، وتعدّ الأمثال من أكثر أجناس القول ذيوياً وانتشاراً بين الأمم والشعوب يقول ابن وهب في هذا الصدد: "أما الأمثال، فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضرّبون الأمثال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً وأقرب مذهباً (...). لذلك جعلت القدماء أكثر أدباً، وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم"⁽⁴⁶⁾، ولذلك رأى ابن عبد ربه أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة "فقد نُطق بها في كلّ زمان، وعلى كلّ لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيءٌ مسيرها حتى قيل أسيرٌ من مثل"⁽⁴⁷⁾. وهو ما يجعلنا نتساءل عن سبب هذا الانتشار، الذي يمكننا رده إلى بناء المثل وأسلوبه ومضامينه التربوية التوجيهية وما يتركه كل ذلك من أثر في المتلقي فكرياً ونفسياً، لأن المثل هو ذلك الفن من الكلام الذي يميّز بخصائص ومقومات، تجعله جنساً من الأجناس الأدبية قائماً بذاته، وقسيماً للشعر والخطابة والقصة والمقالة والرسالة والمقامة..."⁽⁴⁸⁾.

ولعل أولى تلك الخصائص أنّ المثل ضربٌ من ضروب التمثيل تقاس فيه حال بحال وهيئة بهيئة مما يجعل خاصية المماثلة لصيقة به وأشهر صورها القول السائر بين الناس المنقول مما ورد فيه إلى حال مشابحة دون تغيير فيه كقولهم: "لو ذات سوار لطمتي"⁽⁴⁹⁾، وهو من أبلغ ضروب البلاغة نظراً لقدرة على نقل المعاني من صورها الذهنية المجردة إلى صور حسية من شأنها تقريب المعنى إلى المتلقي من خلال تشخيصه أو تجسيده، يقول مسكويه في بيان العلاقة الجامعة بين النفس الإنسانية والصور الحسية: "إنّ الأمثال إنما تضرب فيما لا تدركه الحواس مما تدركه، والسبب في ذلك أنسنا بالحواس، وإلّنا لها منذ أول كونها، ولأنّها مبادئ علومنا، ومنها نرتقي إلى غيرها، فإذا أخبر الإنسان بما لا يدركه، أو حدث بما لم يشاهده، وكان غريباً عنه، طلب له أمثاله من الحسن، فإذا أعطي ذلك أنس به وسكن إليه لإلّفه له"⁽⁵⁰⁾.

ويقول ابن المقفع (ت) في بيان بلاغة المثل "إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وأنق للسمع، وأوسع لشعوب الكلام"⁽⁵¹⁾، ويقول الزمخشري (ت 538هـ): "ولضرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كأنّه مشاهد"⁽⁵²⁾. ويقول إبراهيم النّظام (ت 231هـ): "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة"⁽⁵³⁾، ويقول أبو حيان التوحيدي: "أما بلاغة المثل فإن يكون اللفظ مقتضباً والحذف محتملاً، والصورة محفوظة، والمرمى لطيفاً، والتلويح كافيّاً، والإشارة مغنية والعبارة سائرة"⁽⁵⁴⁾. وانطلاقاً من هذه النصوص والأحكام النقدية المتفرقة يمكن أن نخلص إلى أنّ بلاغة المثل عند القدماء تقوم على أربعة مقومات أساسية هي الإيجاز وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية.

الإيجاز: "هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير بإيماء ولحظة تدلّ عليه"⁽⁵⁵⁾، فالإيجاز وفقاً لتعريف البلاغيين العرب علاقة مخصوصة بين اللفظ والمعنى، فالمعروف في أعراف المتحدثين أنه كلما زادت الألفاظ والعبارات زاد المعنى وضوحاً وقرباً من ذهن المتلقي ووقعت الإفادة، غير أنّ العبارة المثلية شاذة عن هذه القاعدة، فالإيجاز يعدّ أهم مقياس من مقاييس بلاغة المثل وأدبيته، والإيجاز ليس مجرد شرط من شروط الكلام البليغ ولا مقوماً من مقومات الجودة به تصنّف النصوص وتتفاضل، بل تجاوز ذلك ليحتل "مكانة رفيعة في الجهاز البلاغيّ والتّقديّ وبلغ درجة من التجريد كبرى حتى استحال مرادفاً للبلاغة رديفاً لها"⁽⁵⁶⁾، فرغم الخلاف الواسع القائم بين النقاد والبلاغيين حول ماهية البلاغة فإنّ التعريف الذي قدّمه أبو هلال العسكري على لسان ابن المقفع لقي مساحة واسعة من القبول حين اعتبر "الإيجاز هو البلاغة". فقد صار الإيجاز مطمحاً لصناع الكلام وأرباب البيان وميزة بما يمدح المتكلم ويفتخر، يقول علي بن أبي طالب "ما رأيت بليغاً قطّ إلاّ وله في قول إيجازٌ وفي المعنى إطالة"⁽⁵⁷⁾، وقد ارتبط الإيجاز عند النقاد والبلاغيين بإصابة المعنى فصار هذا الارتباط هو مكنن الجمال فيه.

التشبيه: إضافة إلى جمالية الإيجاز تتجلى أدبية المثل في مقوم آخر من مقومات البلاغة هو التشبيه وقد وردت عن النقاد العرب نصوص نقدية كثيرة تبين جمالية التشبيه وأهميته في صناعة المعنى، ولعل من أهم ما ورد في هذا السياق قول عبد القاهر الجرجاني: "وهل تشكّ في أنّه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب، ويجمع بين المشتم والمعرق، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شهباً في الأشخاص الماتلة، يُنطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التمام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين"⁽⁵⁸⁾، فالتشبيه من أساليب البيان الرفيعة المتفق على بلاغتها يمنح النّص صورة فريدة ويعطي المثل طاقة تصويرية هائلة لأنه متى استدعى في الخطاب أحال جملة من العلاقات الدقيقة تجمع بين أطراف كان من الصعب أن تجتمع ومزج بينها في سياق أدبي مختلف، وللتشبيه إضافة إلى الجانب التصويري وقعه الخاص على الجانب الدلالي للنص إذ يساعد على تقريب المعنى البعيد وتبنيته.

الكناية: لا شك أن الإيجاز الذي يتسم به المثل متصل اتصالاً وثيقاً بنظام الصورة فيه، فلما كانت العبارة المثلية قصيرة مختزلة من حيث الامتداد والحجم كان على الصورة أن تتدرك هذا الاختزال فتكون مكثفة موحية⁽⁵⁹⁾. وإلى جانب جمالية التشبيه يفتح المثل على شكل آخر من أشكال التصوير يعدّ مقوماً من مقومات الأدبية ولا يقل أهمية عن سابقه وهو **الكناية** حيث يعدّ المثل ذاته ضرباً من ضروب الكناية والتعريض، فالمتكلم لا يدلي صراحة بالمعنى الذي يريد التعبير عنه أو ما يصطلح عليه **مضرب المثل**، وإنما يعبر عنه كناية عن طريق المثل، أما **التعريض** فـ"خلاف التصريح، والمعارض: التورية بالشيء عن الشيء (...)" والتعريض قد يكون بضرب الأمثال، وذكر الألباز في جملة المقال⁽⁶⁰⁾، ووجوده في المثل يعطى العبارة أبعاداً جمالية تغني بالتلميح عن التصريح وبالإبهام عن الإفصاح، ولعل للإيجاز دوره في صناعة تلك الأبعاد لكونه يسهم في جعل النصّ إشارة خاطفة. ففي جملة الموجزة قوة بيانية هائلة يصنعها التركيز وحسن التقسيم وكثرة التلميح وبعد الإشارة ودقة البناء والصور البيانية... كقولهم: بلغ السيل الزبي/ رماه الله بثلاثة الأثافي/ رمته بدائها وانسلت، وغالبا ما لا يكون السجع من خواص المثل حاجته إلى فواصل يتكرر فيها الصوت ولقصر المثل الذي يبنى في الأغلب من جملة أو جملتين⁽⁶¹⁾. يقول الرمحشري: "إن الأمثال أوجزت اللفظ، فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح وكنت فأغنت عن الإفصاح."⁽⁶²⁾

هذا ويتميز النص المثلي ببنية تركيبية تقريرية ذات جمل قائمة على الإسناد كالجمل الاسمية المجردة من النواسخ، كقولهم: أول الصيد فرع، أنف في السماء ورأس في الماء/ أنا ابن كديها وكدائها/ أبي يغزو وأمي تحدث، والمنسوخة كقولهم إن من الحسن لشقوة. وللمثل قيمة إخبارية كقولهم: تنهانا أمنا عن الغي وتروح فيه/ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه/ تبشري بغلام أعبا أبوه.

كما يتميز المثل بإيقاع خاص، بل يعد الإيقاع أحد مظاهر التركيب المثلي البارزة كقولهم: سمن كلبك يأكلك. ففي كثير من الأمثال نجد حسن التقسيم، وتكرار الكلمات مثل: الفكلى تحب الفكلى، وتكرار الحروف على وجه الجناس: حرة تحت قرة⁽⁶³⁾، إضافة إلى صورته القصصية الوعظية المسلية والمشوقة مما أعطى المثل حيزا واسعا من الشهرة والانتشار⁽⁶⁴⁾.

الرسائل: فن الترسل من العصر الجاهلي إلى العباسي

الكتابة في العصر الجاهلي: الكتابة عنوان الرقي والتقدم عند الأمم ومظهر من مظاهر الحضارة، وقد كانت البدايات الأولى للكتابة عند الإنسان غامضة لا يدري أتوقيفية هي أم وضعية، ولكن المؤكد أنه استخدمها في مراحل معينة دلت عليها آثار الحضارات القديمة، ومرت بتطورات على مر العصور، كان أولها في الشرق الأدنى القديم (الحضارة السومرية والحضارة الفرعونية) ممثلا في الكتابة المسماة في وادي الرافدين والمهروغليفية في مصر، وآخرها الكتابة الأبجدية عند الفنيقيين وهي مصدر الأبجديات التي انتقلت إلى اليونان والإغريق واعتمدها اللغات السامية في المشرق. - الكتابة العربية في العصر الجاهلي: لا يعني الجهل عدم معرفة العرب بالعلوم والكتابة والقراءة، فمع "أن عرب الجاهلية لم يكونوا أهل كتابة، فإن الكتابة عندهم لم تكن نادرة، لقد كان العرب يكتبون بينهم العقود والمواثيق ويكتبون الرسائل في بعض الأحوال، ويبدو أن الشعراء كانوا يدونون أشعارهم أيضا، ومع أن الكتابة معروفة في الجاهلية، فإنها لم تكن مألوفة خصوصا في البادية" بسبب حياة الترحال والتجارة، وقد ذكر القرآن الكريم وسائل الكتابة في مواطن عدة للدلالة على معرفة العرب بها.

ولما جاء الإسلام كان في قريش سبعة عشر رجلا يعرف الكتابة، وكانت الشفاء بنت عبد الله العدوية تحسن الكتابة، وكان في المدينة بضعة عشر كاتباً منهم سعيد بن زرارة والمنذر بن عمرو وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورافع بن مالك وأسيد بن خضير ومعن بن عدي وبشر بن سعيد. -وقامت في مكة والمدينة والحيرة والطائف والأنبار مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية، يقول الجاحظ في حرصهم على كتابة المواثيق: "وأقول لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط... ولتعظيم ذلك والثقة به والاستناد إليه كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيما للأمر وتبعيدا من النسيان، ولذلك قال الحارث بن حلزة في شأن بكر وتغلب:

واذكروا حلف ذي الجار وما قدم فيه من العهود والكفلا..."⁽⁶⁵⁾

من هذه العهود ما كان بين العرب وغيرهم مثل عقد حلف قريش مع النجاشي وعقد حلفها مع هرقل، وقد اشتملت تلك العقود المكتوبة على العهود الشخصية والقبلية والمعاملات المالية والتجارية والمراسلات الشخصية، من تلك العهود كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وخزاعة جاء فيه: "باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمر بن ربيعة بن خزاعة، تحالفوا على التناصر والمواساة، ما بل

بجلر صوفية، حلفا جامعا غير مفرق: الأشيخ على الأشيخ، الأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا وأكد عهد وأوثق عقد لا ينتقض ولا ينتكث ما أشرفت شمس على ثبير وحن بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان واعتمر بمكة إنسان، حلف أبد لطول أمد، يزيد طلع الشمس شدا وظلام الليل مدا، وأن عبد المطلب وولده ومن معه ورجال خزاعة متكافون متظاهرون متعاونون، فعلى عبد المطلب النصر لهم بمن تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصر لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل، وجعلوا الله علمذلك كفيلا وكفى بالله جميلا⁽⁶⁶⁾.

كما دون العرب بعض الوقائع التاريخية وأنساب القبائل⁽⁶⁷⁾ وهناك بعض الكتب الدينية مثل كتاب دانيال وكتب الحكمة، من كتابهم المشهورين ورقة بن نوفل، ومنهم من عرف اللغات الأعجمية مثل النضر بن الحارث. من دلائل كتابتهم الشعر لحفظه من الضياع قضية تعليق المعلقات على أستار الكعبة، يقول ابن رشيق: "كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون في خزائنه"⁽⁶⁸⁾، ويقول ابن سلام في طبقات فحول الشعراء: "وقد كان عند النعمان بن المنذر مئة ديوان في أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان أو ما صار منه"⁽⁶⁹⁾ وإن شكك كثيرون في إمكانية ذلك.

ومن رسائلهم المشهورة كتاب أكنم بن صيفي إلى النعمان بن خبيصة البارقى وقد طلب منه في كتاب يقول: "مثل لنا مثالا تأخذ به"، فأجابه برسالة مطولة جملها حكم وأمثال، منها: "قد حلبت الدهر أشطره، فعرفت حلوه ومره، عين عرفت فذرفت، إن أمامي ما لا أسامي رب سامع بخبري لم يسمع بعذري كل زمان لمن فيه. في كل يوم ما يكره. كل ذي نصره سيخذل. تباروا فإن البر ينمي عليه العدد. كفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه. إن قول الحق لم يدع لي صديقا. الصدق منجاة. لا ينفع مع الجزع التقي، ولا ينفع مما هو واقع التوقي. ستساق إلى ما أنت لاق. في طلب المعالي يكون العناء. البطر عند الرخاء حمق، والعجز عند البلاء أفن. لا تغضبوا من اليسير فرما جنى الكثير. ادعوا الليل واتخذوه جملا، فإن الليل أخفى للويل. أقصر لسانك على الخير، وأخر الغضب، فإن القدرة من ورائك.. أمر أعمال المقتدرين الانتقام. اجز بالحسنة ولا تكافئ بالسيفة. من جعل لحسن الظن نصيبا روح عن قلبه. عي الصمت أحمد من عي المنطق، العي أن تتكلم فوق ما تسد به حاجتك." وكتابة بعض العهود والصحف لا يعني شيوع الكتابة أو تنوعها في المجتمع الجاهلي الذي غلبت عليه الأمية والبداءة، فهي مذكورة على سبيل الحصر، وأضعاف أضعافها كان يتم مشافهة، فكانوا يعتمدون في مراسلاتهم على المشافهة غالبا، يبحثون رسائلهم شفوية مع أمناء يتخبرونهم، من العهود التي تمت مشافهة تعاقد بني عبد الدار وبني عدي بن كعب بن لؤي وتأكيدهم حلفهم بوضع أيديهم في الدم حتى سميت "لعقة الدم"⁽⁷⁰⁾ الخصاص العامة للرسائل الجاهلية: - عادة ما تبدأ الرسائل وبخاصة العهود بعبارة باسمك اللهم.

- جزالة الألفاظ ورسالتها واعتمادها على الرنين والتطريب، مع وضوحها وسهولتها.

- غلبة الإيجاز

- الفصل بين الجمل، فغالبا ما تستقل كل جملة بفكرة.

- استخدام الصور البلاغية خاصة التشبيهات.

- كثرة الحكم والأمثال.

- اعتمادهم على الإيقاع الداخلي بواسطة الأسجاع والجناسات والمقابلات والثنائيات الضدية.

- خلوها في الأغلب من الشعر. - اختتام بعضها بجعل الله كفيلا على ماتم التعاهد عليه، وأغلب رسائلهم دون خاتمة واضحة.

- فن الترسل في صدر الإسلام: الكتابة في فجر الحضارة الإسلامية: احتاج المجتمع الإسلامي الجديد الأخذ بأسباب النظام إلى من

يكتب له في الشؤون العامة والمعاهدات والمراسلات، واتخذ من الكتابة إحدى دعائمه، وقد أولى الله سبحانه وتعالى الكتابة أهمية وشأنا في كتابه العزيز، فأقسم بوسائلها: (ن والقلم وما يسطرون/ والطور وكتاب مسطور في رق منشور/ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم)، كما جاء في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف...

تطور الكتابة في عهد النبوة ومنزلتها: شجع المصطفى صلى الله عليه وسلم على تعلم الكتابة، فجعل فداء الكتاب من الأسرى تعليمهم

عشرة من صبيان المسلمين الكتابة، كما دعا بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأخرى، قال يزيد بن ثابت: تعلم كتاب يهود، فإني ما آمنهم على كتابي. فتعلمها وحذقها وكان يكتب له إليهم ويقرأ له ما يكتبونه إليه. فجر الإسلام/171. كما حظ القرآن الكريم على الكتابة في المعاملات في

سورة البقرة آية المداينة. لتسيير شؤون الدولة الفتية وتنظيم علاقاتها داخليا وخارجيا، في حال الحرب والسلم والرخاء والشدة والأمان والخوف، كانت الحاجة إلى الكتابة في شكل رسائل وعهود وتوصيات ومعاهدات، كما كانت الكتابة وسيلة لإنشاء حقوق جديدة أو إنهاء التزامات قديمة أو إنشاء علاقات جديدة أو قطع أخرى قديمة.

وعليه فقد كان وجود هذه الدولة ونموها المتزايد ومتطلبات هذا الوجود وهذه التطورات السريعة، أهم دافع لإنشاء الرسائل والعهود وسائر المكاتبات التي هي نواة الرسائل الديوانية، وإحدى لبنات الدولة المركزية الجديدة التي اقتضى ترسيخ قواعدها تنظيم علاقاتها مع القبائل المختلفة. فقد أدت الحاجة به - صلى الله عليه وسلم - إلى العناية بالكتابة وحث المسلمين عليها، فببذوغ الدولة العربية الإسلامية أضحت الحاجة ماسة إلى إظهار الكتابة وبثها في الأرجاء لأن الدولة تستلزم علاقات وروابط داخلية، وخارجية لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها إلا بالمراسلات، وهكذا كان إنشاء النبي - صلى الله عليه وسلم - للدولة الإسلامية العربية داعيا إلى إنشاء نظام من المراسلات. فقد اتخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - كتابا يكتبون له القرآن، ويكتبون رسائله التي يبعث إلى رؤساء القبائل، وزعماء المناطق، وملوك الدول المجاورة كفارس، والروم والحبشة⁽⁷¹⁾ ويعتقد القلقشندي أن ديوان الرسائل أول ديوان وضع في الإسلام، قائلا: « أعلم أن هذا الديوان (ديوان الرسائل) أول ديوان وضع في الإسلام وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يكتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه... وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء... كتب لعمر بن حزم عهدا حين وجهه إلى اليمن، وكتب لتميم الداري وإخوانه بإقطاع الشام، وكتب كتابا لعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية، وكتب في الأمانات أحيانا »⁽⁷²⁾. فكان له صلى الله عليه وسلم جماعة من الكتاب تخصصوا بكتابة الوحي عثمان وعلي، وفي غيابهما يكتب له أبي بن كعب وزيد بن ثابت، وفي حوائجه كان يكتب له خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، وكان المغيرة بن شعبه والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس، وكان عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحضرمي يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهم، وكان حنظلة بن الربيع (ابن أخ أكرم بن صيفي) يخلف من يغيب من كتاب الرسول وأكثرهم اتصالا به وكان خاتمه معه فغلب عليه لقب الكاتب. وهكذا دخلت الكتابة في كثير من شؤون المسلمين، تزخر كتب السيرة والحديث والتاريخ بما وقد جمعها محمد حميد الله الحيدرابادي في كتابه "مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة"⁽⁷³⁾

موضوعات الترسيل في صدر الإسلام:

- 1- المعاهدات وكتب الصلح: يعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في العام الهجري الأول مع قبائل اليهود أو ما يعرف بكتاب المودعة أول كتاب تنظيمي له في المدينة، خاصة وقريش لا تفتأ تؤلب عليه، في وقت كان المسلمون في ميسس الحاجة إلى الهدوء واستعادة القوة، خاصة ولم يشرع بعد القتال ولم يظهر من اليهود ما يوجب القتال، فهو يؤكد ميل الرسول إلى السلم الذي هو الأصل في الإسلام، وأن الحرب ليست هدفا في ذاتها، وأن هدفه الأول هو إقرار السلام والقيم الإنسانية، حتى ينصرف إلى تنظيم صفوف المسلمين وتوحيدهم والمؤاخاة بينهم بعد محاولة المنافقين الإيقاع بين الأوس والخزرج، وفي المعاهدة مبادئ سياسية وقيم اجتماعية كثيرة منها تقرير مبدأ الأخوة والتعاون بين المؤمنين/ ترك الحرية لغير المسلمين أن يبقى الحال على ما كان عليه/ كل ذلك في ظل الدولة الإسلامية والالتزام بضوابطها... فقد صار الجميع رعايا الدولة الموحدة. كما كانت الحرب النفسية بين المسلمين والمشركين دافعا إلى مكاتبات بين الطرفين، مثل كتاب أبي سفيان إلى الرسول صلى الله عليه وقت الخندق.
- 2- رسائل العيون والجواسيس: نظرا لحال التأهب التام بين الطرفين فقد كانت الرسائل المحذرة ورسائل الجوسسة تصل باستمرار، منها كتاب العباس بن عبد المطلب إلى النبي يخبره باستعداد قريش للزحف إلى قتاله بعد هزيمة بدر، وكتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرها بسير المسلمين إلى مكة لضربها.
- 3- رسائل الصلح: وأساسها الحرص على الاستقرار والسلام، أشهرها وثيقة صلح الحديبية، فبعد انتصارات الدولة وكسر شوكة اليهود وكيدهم وتطبيق كثير من التشريعات والتكاليف كالصوم والزكاة وإقامة الحدود وتحقيق التفوق العسكري، لم يبق غير شوكة قريش وقد خرج الرسول في العام السادس للهجرة إلى الحج، ولكنه عاد من حيث أتى موقعا صلح الحديبية الذي أمضى فيه هدنة ب 10 سنوات، وفي هذا العقد اعتراف رسمي من قريش بمحمد قائدا وبالمسلمين كيانا له وجود وسلطان وثقل.

4- رسائل الدعوة إلى الإسلام: كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على نشر الدعوة للعالمين، فكانت له مراسلات إلى الملوك والحكام ورجال الدين مثل كتابه إلى ملك الفرس كسرى برويز، وكتابه إلى المنذر بن ساوى عامله على البحرين، وكتابه إلى المقوقس عظيم القبط، وكان أغلب هذه الكتب في العام الهجري السادس وما تلاه، بعد صلح الحديبية وأمن المسلمين في الداخل ومن قريش وأحلافها. تشترك هذه الرسائل في مضمون محوري هو الدعوة إلى الإسلام، وتبيان أن محمدا رسول الله، وأن الممتنع عن الدين من هؤلاء الملوك والزعماء يحمل إثمهم وإثم رعاياه.

5- كتب الهبات والإقطاع: هي كتب تسجل حقوقا لبعض القبائل والجماعات من قبل الدولة، مثل كتابه للداريين يقطعهم قرية عينون وبيت حبرون والمرطوم وبيت إبراهيم.

6- رسائل إلى أفراد: مثل كتاب الأمان لسراقة بن مالك وهو يلاحقه وصاحبه قبل الهجرة...

7- الرسائل التشريعية: هي الكتب التي يفصل فيها أمور الدين ويشرح أركانه وخصوصا الزكاة مثل كتابه إلى ملوك حمير وكتابه إلى معاذ بن جبل واليه على اليمن، تحدث فيه عن خراج الأرض والحج واليهود...

8- رسائل خارج إطار الدولة: كان الباعث إليها إنسانيا، أرقاها كتابه إلى معاذ بن جبل واليه على اليمن يعزبه في ابن مات له، جاءت مفعمة بالإيمان والتعاطف وصدق المشاركة بين القائد وأحد ولاته، وهي نموذج مبكر في الرسائل الإخوانية.

9- كتب الأمان العام أو الشامل: مثل كتابه لأهل أذرح وجرباء الذي اكتفى فيه بالنص على أنهم "آمنون بأمان الله وأمان محمد"، وكتب الأمان المفصلة مثل عهده لأهل أيلة فقد أمنهم على سفنهم وسيارتهم في برا وبحرا، ولا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر.

10- الرسائل الجوابية: هي التي تكتب ردا على رسالة واردة إليه مرتبطة بموضوعها، منها جوابه لمسيمة.

وتبعه الخلفاء الراشدون في مراسلاتهم ومعاهداتهم، ومضى على نهجه عصر الخلافة الراشدة، إلا أنه في عصر عمر بن الخطاب ظهرت الدواوين، إذ احتاج المسلمون إليها كديوان الخراج، وديوان الجيش، خاصة عندما فتحت الأمصار واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فقد كانوا يكتبون إلى الولاة وقادة الجند والقضاة، ويتلقون منهم مراسلات، من أشهرها كتاب عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري. ولم تكن رسائلهم تعني بأسلوب الكتابة وبلاغتها، فقد سار الخلفاء على منواله - صلى الله عليه وسلم - في كتابة الرسائل، ولم يخلوا بنظمه، إذ لم تخرج غايتهم عن مجرد الإفهام والإبلاغ⁽⁷⁴⁾.

خصائص الرسائل في صدر الإسلام:

- 1- منهج الرسالة (بناؤها): استن الرسول صلى الله عليه وسلم لبناء الرسالة سننا تتبع إلى يومنا هذا أهمها:
 - الافتتاح بالبسملة: وأشهرها صيغة بسم الله الرحمن الرحيم. - ذكر طربي الكتاب، المرسل أولا ثم المرسل إليه.
 - التحية بالسلام، تعددت صورها تبعا لمن ترسل إليه، إذا كان مسلما تغلب عبارة سلام عليك، ولغير المسلم سلام على من اتبع الهدى، وهناك رسائل عاجلة أو سرية تخلو من السلام.
 - عبارة أما بعد ترد بعد السلام غالبا، وتؤذن بالولوج إلى صلب الموضوع الذي أنشئت لأجله الرسالة.
 - اختتام الرسالة بالسلام للمسلم ولغير المسلم صيغ كثيرة منها سلام على من اتبع الهدى، والسلام عليكم إن أطعتم.
- 2- غلبة الإيجاز على رسائله، لأنها محددة الموضوع سلفا ولا مجال للإطالة فيها، مثلا رسالة صلح الحديبية لا تتجاوز الخمسة أسطر، فلم يكن هناك مجتمعات مسلمة خارج شبه الجزيرة مما يقتضي إرسال الكتب الطوال للولاة والقادة، بينما أطل في كتاب المواعدة باعتباره دستور عمل ومعايشة في المجتمع الجديد، وقد أثر عن الخلفاء بعض الرسائل التفصيلية المطولة بحكم انتشار الدين الجديد وتوسع الدولة بعد فتح مصر وفارس...
- 3- السهولة والوضوح وتجنب الحوشي من الكلام والغموض والإغراب لأن الغرض منها هو الإبانة والتوضيح والإبلاغ.
- 4- الاسترسال في طلاقة ويسر، فلم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم تكلف أو توعر أو افتعال، ولا عن خلفائه.
- 5- اعتماد بعض الأساليب الفنية كالتقابل والتضاد مثل قوله "أسلم تسلم وقوله "فإن فعلت سعدت وإن أبيت شقيت".
- 6- توظيف الشواهد القرآنية المختلفة، الآيات وأجزاء الآيات والألفاظ القرآنية.

7- اعتماد الأسلوب التقريري المباشر في مواضعه، وأسلوب التصوير في مواضعه، مثل قوله: "وخيلي تحل بساحتكما"، كناية عن القدرة والنصر والسيطرة وعن قوة الدولة الإسلامية... (75)

فن الترسل في العصر الأموي: الترسل أو المراسلة أو المكاتبة، جميعها تدل على التخاطب ولكن بلسان القلم، والترسل بهذا المعنى (76). الترسل من الفنون الأدبية التي عرفت تطوراً كبيراً في ظل الدولة الأموية، والرسالة هي كل ما يكتبه المرء إلى صديقه، أو أهله، وتكون موجزة محدودة الموضوع، سهلة الأسلوب خالية من التأنق اللفظي غالباً، والرسائل أنواع منها الديوانية الخاصة بالسلطان الإخوانية المتداولة بين الناس (77). وسارت الكتابة في المراحل الأولى من العصر الأموي، على النمط نفسه، وجرى الخلفاء في كتابة رسائلهم كما كان عليه الأمر من قبل وقد أنشأ معاوية ديوان الخاتم، وكان الخليفة في أول الأمر هو الذي يملي الرسائل على كتابه، وبمرور الزمن أخذ الكتاب يستقلون بكتابة الرسائل ثم تعرض على الخليفة (78). ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة أمر بتجويد القرايطيس، وتفخيم الخطاب وألا يكتب بمثله ما تكاتب به السوق وأن يختص الأعلى درجة بالخطاب أولاً سواء أكان مرسلًا أو مرسلًا إليه... وجرى العمل على ذلك من بعده حتى استخلف عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف وقد أمر عمر بن عبد العزيز بعدم الإسراف في القرايطيس والأقلام حفاظاً على بيت مال المسلمين (79).

تطور الكتابة في العصر الأموي: عرفت الحياة في عصر بني أمية رقياً عظيماً، فقد جد الكثير من المشكلات، وتعددت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والفكرية، إذ تحضر العرب، وأخذوا يستعيرون كثيراً من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة (80). فزادت العناية بها لاتساع أعمال الخلفاء، وكثرة شؤون الحكم وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها في عهد الخلفاء الراشدين دواوين أخرى : **ديوان الرسائل :** لكتابة الرسائل الصادرة عن دار الخلافة وقد اتخذ عليها عبد الله بن أوس الغساني، وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل... وكان الخليفة هو الذي يتولى إملاء الرسائل بنفسه فلم تظهر للكتاب شخصية إلا في عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكتابه على الرسائل إذ كان ينوب عن الخليفة في كثير منها، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها.

ديوان الخاتم: ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مخطوماً لا يدري حامله ما فيه ولا يستطيع أن يغيره، وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخري في كتابه «الأدب السلطانية»، أن معاوية أحال رجالاً على والي العراق بمائة ألف درهم، فمضى الرجل وجعل المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الأمر، فأمر بوضع ديوان الخاتم فصارت التوقيعات تصدر منه محتومة (81). **ديوان الخراج:** عهد الخلفاء بالكتابة فيه إلى العرب والموالي المتعربين وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصير، ففي العراق وفارس بالفارسية وفي الشام بالرومية وفي مصر بالقبطية حذقها من العرب طائفة صالحة، وقد عربت جميعها في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد (82). كان يكتب لمعاوية على ديوان الخراج سرجون الرومي بالخط الرومي إلى أن نقلت دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية على يد صالح بن عبد الرحمن في أيام الحجاج ومن الرومية إلى العربية على يد سليمان أيام عبد الملك وفي مصر من القبطية إلى العربية زمن الوليد بن عبد الملك (83).

عوامل ازدهارها تضافرت عوامل عديدة على النهوض بهذا الفن وتطوره نوجزها فيما يأتي:

1- تحوُّلها إلى صناعة: باتساع الدولة وتعدّد مهامها ازدادت الحاجة إلى كتابة الرسائل السياسية، ولما كان الخلفاء في شغل بشؤون الملك، لم يجدوا الوقت الذي يسعفهم في تولّي كتابة الرسائل بأنفسهم أو إملائها على غيرهم، فوكلوا كتابتها إلى حذاق الكتاب، وقد بدأ بهذا الأمر عبد الملك بن مروان الذي اتخذ سليمان بن سعد كاتباً له، وما زال خلفاء بني أمية يقلدون ذلك المنصب لكبار الكتاب حتى صارت الكتابة في آخر عهدهم صناعة متميزة ذات نظم خاصة، وكثر عدد الكتاب وتعددت دواوين الكتابة، وعكف الكتاب على تنميق تلك الرسائل الرسمية وتجويدها. 2- نمو الثقافة العربية: نمت الثقافة في هذا العصر، دينية وقوامها القرآن الكريم وتفسيره والحديث وروايته والفقه والتشريع، وأدبية قوامها اللغة والشعر والتاريخ والأخبار والأنساب، وعلمية دخيلة تمثلت في الطب والمنطق والكيمياء والنجوم والمثلل...

3- الاتصال بالثقافات الأجنبية: اندفع المسلمون في الأقاليم فاتحين في سرعة فائقة، فتحوا دمشق سنة 14هـ وأكملوا فتح الشام والعراق سنة 17، ومصر سنة 20 وملكوا فارس سنة 21 وبلغوا سمرقند سنة 56 والمغرب سنة 50هـ، واخضعوا الأندلس والسند سنة 93هـ. وقد كانت جلّ

تلك البلاد المفتوحة عامرة بالحضارة وثقافات شتى، في فارس والعراق آداب وعلوم، وفي الشام ومصر فلسفة وفي الهند حساب... فتح المسلمون صدورهم لهذه الثقافات، فكان لذلك أثره العظيم في تطوير فن الكتابة ورفيقه.

4-مكانة الكتاب: ارتفع البلغاء ببلوغهم إلى أقدار رفيعة، وكانت بلاغتهم وسيلة من وسائل مجدهم وغناهم، وهو أمرٌ يحفز على تجويد هذا الفن واستكمال العدة... وفي تلك المنزلة يقول عبد الحميد الكاتب في وصيته للكتاب⁽⁸⁴⁾: «إن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا، وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب رزقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشهر الجهات، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانتهم، وتعمر بلادهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون⁽⁸⁵⁾.

5-ازدهار حركة الجدل: الكبير بين الأحزاب السياسية المتنافرة وبين الفرق الدينية والمدارس الكلامية، بل وبين المسلمين وغيرهم.

خصائص فن الترسل في العصر الأموي: تميز فن الترسل في هذه المرحلة بمميزات أهمها:

- الاقتصاد في الأغراض على القدر الضروري للدولة العربية، و في المعنى على الإلمام بالحقائق، دون مبالغة أو تجميل⁽⁸⁶⁾.
- البساطة التي تنزل بها إلى مستوى لغة التخاطب لدى العرب في ذلك الزمن، وإن وشاها في بعض الأحيان الجمال الطبيعي، ولكنه لا يخرج بها عن لغة الحديث، فما كانت تهدف إلا إلى إفهام المرسل إليهم مضمونها⁽⁸⁷⁾.

- مراعاة الإيجاز، وفي ذلك يقول طه حسين: «هذه الرسائل كانت تكتب مختصرة لا يقصد منها إلا مجرد الأداء في غير تفنن، أو إثارة لجمال فني خاص، ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة، جملها صغيرة، توشك أن تكون رموزا ليس فيها هذا التفصيل، أو المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ»⁽⁸⁸⁾.

- استعمال الألفاظ الفحلة، والعبارات الجزلة، والأساليب البليغة، إذ كان الكاتب والمكتوب إليه عربا فصحاء.
كانت الضمائر في الرسائل واقفة عند الغرض، جارية على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم، وخطاب الواحد، وكانت تبدأ بالبسملة، وقولهم «من فلان»، و«وبعد»، «إني أحمد الله الذي لا إله إلا هو»، وتختتم بالسلام على المسلم أو بقولهم «والسلام على من اتبع الهدى»⁽⁸⁹⁾ في خطاب غير المسلمين.

ملاحظة: وقد بلغ فن الترسل أوج تطوره وتنوعه في العصر العباسي مثل الرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية بصورة خاصة.

وقد استمرت الرسائل الإخوانية في العصر الحديث ومن أشهر كتابها جبران خليل جبران ومي زيادة ورسائل طه حسين وتوفيق

الحكيم، ورسائل الرافعي ومحمود أبو رية.

فن المقالة: في المفهوم والمصطلح: المقال فن أدبي حديث يعود أول استعمال له إلى الأديب ميشيل دي مونتيني (1533-1592) في كتابه محاولات، عرفه ألدوس هوكسلي على أنه "طريقة أدبية لقول كل شيء عن أي شيء"⁹⁰. وتشير جل التعريفات إلى استعصاء المقال على التحديد الدقيق والارتقاء إلى قاعدة ضابطة فهو في التسمية الفرنسية والإنجليزية بمعنى المحاولة التي تشي بعدم الاكتمال، فبارت يرى أن "المقال يتميز بقاعدة يتيمة هي فوضاه المنهجية"⁹¹. وهي الفكرة التي يؤكد بها أدورنو بقوله: "إن هذا النمط من النصوص يستعمل طريقة هي منهجيا غير منهجية"⁹²، فهو شبيه بالخواطر والمذكرات الخاصة غير المكتملة. وهو ما تؤكدته التعريفات المتأخرة في القواميس الغربية، جاء في لاروس: "المقال اسم يطلق على الكتابات التي لا يدعي أصحابها التعمق في بحثها أو الإحاطة التامة في معالجتها، ذلك أن كلمة مقال تعني محاولة أو خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجربة أولية"⁹³. وهو المعنى نفسه الذي يؤكد قاموس أكسفورد في تعريفه المقال "هو إنشاء كتابي نثري معتدل الطول في موضوع ما، وهو دائما يعوزه الصقل"⁹⁴، فهو يقدم مادة وحقائق ووجهات نظر غير مكتملة. وعرف محمد يوسف نجم المقال بكونه "قطعة نثرية محدودة الطول والموضوع تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب"⁹⁵، فهو إلى جانب ما يقدمه من معلومات لا يخلو من عنصر التشويق ومن شخصية الكاتب وأسلوبه وطريقة عرضه وخبرته، هذا وليس للمقال خط ثابت يتبعه كل كتاب

المقال فلكل مقال خطته حتى عند الكاتب الواحد، وهذا ما يميز المقال عن الفنون الأدبية الأخرى، ويتفق جل الدارسين على سمة المقال الحرة وعلى فوضاه الجميلة فعدوه في دائرة الأدب وإن وجدت له أنواع أخرى كالمقال الفلسفي والسياسي والديني...

المقال في الأدب العربي الحديث:

المقال من حيث الدلالة الجديدة فن محدث في الثقافة العربية ارتبط بنشاط حركة الصحافة وهو فن وافد لم يعرفه العرب من قبل⁹⁶ وإن عرفوا فنونا قريبة منه كالرسائل الأدبية خاصة. ويمكننا رصد مسار تطور المقال العربي في المراحل الآتية:

المرحلة الأولى: وتبدأ من إنشاء مطبعة بولاق (1828) إلى الثورة العراقية، هي مرحلة الكتابة الرسمية في الجرائد والصحف التي أسستها الدولة وهي في اللغة العربية قليلة، أولها الوقائع المصرية التي بدأت باللغة التركية ثم طورها رفاعة الطهطاوي وجعلها تصدر باللغتين العربية والتركية ثم صارت تصدر بالعربية، لتظهر بعدها مجلات وجرائد عديدة نذكر منها اليعسوب التي أصدرها محمد علي باشا البقلي (1865)، كما أصدر أبو السعود جريدة وادي النيل (1866)، وأصدر إبراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال جريدة نزهة الأفكار الأسبوعية (1869) وأصدر الطهطاوي وعلي مبارك وإسماعيل الفلكي مجلة روضة المدارس (1870)،... وقد عمت الصحافة جل البلاد العربية بل والدولة العثمانية أيضا فقد أنشأ أحمد فارس الشدياق أسبوعية الجوائب بالأستانة (1860)⁹⁷ فقد عده عز الدين إسماعيل أول من أذاع فن المقال بنوعه الذاتي والموضوعي⁹⁸.

وجل هؤلاء المؤسسين هم أعلام هذا الفن ورواده الأوائل وعلى رأسهم جميعا رفاعة رافع الطهطاوي، وقد غلبت على مقالاتهم الصنعة اللفظية والتكلف والموضوعات السياسية والاجتماعية.

المرحلة الثانية: وتزامنت مع نشاط الحركات الإصلاحية خاصة، فعلى يدي جمال الدين الأفغاني ظهر المقال الإصلاحي، لتعرف المرحلة جيلا من الكتاب أمثال محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وعبد الله النديم وأديب إسحاق وعثمان جلال... عالجوا الأوضاع الاجتماعية والسياسية من منظورات مختلفة دينية ووطنية بأسلوب مباشر حينا (مثل مقالات العروة الوثقى مثلا) وأساليب الإيجاء والمداراة والتلميح مثل كتابات عبد الرحمن الكواكبي، ومما يميز أسلوب مقالات هذه المرحلة البساطة والوضوح والبعد عن التكلف وتقديم الحجج والبراهين المقنعة، إلى جانب الحماسة للتأثير في القراء.

المرحلة الثالثة: وهي التي واكبت ظهور الصحافة الحديثة وجلبها في ظل الاحتلال بكل صوره، نذكر من أشهر كتابها محمد رشيد رضا و ولي الدين يكن... **المرحلة الرابعة:** تبدأ مع بداية الحرب العالمية الأولى من أشهر كتابها محمود تيمور والمازني ومحمد حسين هيكل، ونذكر رمضان حمود من الجزائر بمقالاته الأدبية المبكرة، وقد امتازت هذه المرحلة بالنضج والدقة العلمية والتركيز والأدبية.

المرحلة الخامسة: بعد الحرب العالمية الثانية وقد بلغت أوج نشاطها وتطورها ونضجها الفكري والفني، من كتابها رجاء النقاش ومصطفى شاكر وعيسى الناعوري، ومن الجزائر نذكر محمد البشير الإبراهيمي في المقال الإصلاحي خاصة.

موضوعات المقالة وخصائصها: المقالة السياسية والإصلاحية: تتناول نقد العادات الاجتماعية السلبية والقضايا السياسية خاصة الاحتلال وما انجر عنه من مظالم ومفاسد في الوطن العربي، من أوائل رواده جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بمقالاتهما في جريدة العروة الوثقى، وعبد الرحمن الكواكبي بمقالاته عن الاستبداد، ومحمد البشير الإبراهيمي الذي نذكر مقالاته عن العدل ومقاتته عن الشباب الجزائري كما تمثل له الخواطر.

المقالة الاجتماعية: وتعالج مشكلات المجتمع العربي كالفقر والجهل والعادات وقضايا الأسرة والمرأة وصراع القديم والجديد، من كتابها مصطفى صادق الرافعي وقاسم أمين...

المقالة الأدبية: وفيها يركز الكاتب على إبراز القيم الفنية والجمالية من كتابها المازني وطه حسين وأحمد حسن الزيات ومي زيادة...

المقالة النقدية: تتناول إحدى قضايا النقد الأدبي أو نظرياته، أو تحلل نصا أدبيا، من كتابها العقاد، أحمد حسن الزيات، محمد مندور، محمد غنيمي هلال، ميخائيل نعيمة... أما **الخصائص الفنية للمقال** عموما فأهمها الإمام بالفكرة المراد إبرازها ومناقشتها مناقشة علمية منطقية متسلسلة تسلم كل فكرة إلى ما يليها، ولا تخلو من عناصر التحليل والتعليل والتوجيه الهادئ والقياس وغيرها من أساليب الإقناع بحسب طبيعة الموضوع. والمقال ليس مجرد حشد للمعلومات ونقل لمعلومة ما، فلا بد أن يكون مشوقا يغري المتلقي بقراءته، وأن تتجلى فيه شخصية الكاتب وأسلوبه وطريقة عرضه وخبراته الشخصية وغيرها.